محور الوحدة الموضوعية لسورة البقرة
دراسة في مقاصد السور

إعداد

الدكتور حسين بن علي عمر الزومي

الأستاذ المساعد في قسم القرآن الكريم وعلومه

جامعة المدينة العالمية

الملخص:

المحور الرئيس والمقصد الكبير لكل سورة في القرآن أمر مهم يساعدنا على استيعاب مراد الله، وسورة البقرة –وهي أكبر سورة في القرآن– نالت كثيرًا من اجتهادات المفسرين في هذا المحور، فيركز هذا البحث على المحور الرئيس لسورة البقرة والذي تندرج تحته كل المحاور في السورة، وهو ما يبين الوحدة الموضوعية لهذه السورة، وقد استخدم الباحث المنهج الإستقرائي للوصول إلى أقوال العلماء في مقصد السورة، والمنهج التحليلي في سبر الآيات ومفهومها، وجمع أقوال أهل التفسير واجتهاداتهم الواردة في الوصول إلى مقصدها الأساس، وأثبت البحث أن محور (المدافعة) هو المقصد الرئيس لسورة البقرة، وهو ما اكتشفه الباحث بعد طول تأمل لآياتها، كما أنه أثبت أن سورة آل عمران سورة مكملة لسورة البقرة، وأن محور المدافعة ينتظمها أيضًا.

ABSTRACT

The main focus and the supreme objective of each chapter in the Qur'an is an important matter that can help us to comprehend Allah's command. Al-Baqara, the biggest chapter, received a lot of interpretations in this concern. This research focuses on the main topic of the Baqara Chapter under which all its other topics are its subsections. This stresses the thematic unity. The researcher adopted the deductive approach to reach the scholars' opinions regarding the chapter's objective and the analytical approach to understand the verses and their concepts, and collect the interpreters' statements and their opinions about the main objective. The research proves that the topic of resistance is the main topic of the Baqara Chapter. The research reached such a conclusion after a long contemplation. In addition, he found that Aal Imran Chapter is complementary to Albaqara Chapter and that the topic of resistance is its main topic.

الكلمات المفتاحية: التفسير: الوحدة الموضوعية؛ سورة البقرة؛ مقاصد السور؛ المدافعة.

المقدمة:

لكلّ سورة من سور القرآن موضوع رئيس أو موضوعات عدة رئيسة مشدودة إلى محور خاص، ولها جو خاص يظلّل موضوعاتها كلّها، ويجعل سياقها يتناول هذه الموضوعات من جوانب معيّنة، تحقق التناسق بينها وفق هذا الجو.. وهذا طابع عام في سور القرآن جميعًا، ولا يشذّ عن هذه القاعدة طوال السور كهذه السورة(١).

ومن أوائل من تحدّث عن الوحدة الموضوعية للسورة **ابن العربي المالكي** فيما نقله عنه السيوطي في **الإتقان** والزركشي في **البرهان**؛ حيث قال: "قال ابن العربي في (سراج المريدين)(٢): ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة، متّسقة المعاني، منتظمة المباني، علم عظيم لم يتعرض له إلا عالم واحد عمل فيه سورة البقرة، ثم فتح الله لنا فيه، فلما لم نجد له حملة، ورأينا الخلق بأوصاف البطلة ختمنا عليه، وجعلناه بيننا وبين الله ورددناه إليه"(٣)، ولكننا لم نعلم من هو ذلك العالم، وياليت ابن العربي أخرج لنا ما فتح الله عليه فيه.

وقد كان للمخدوم المهايمي الهندي محاولات رائعة في ذكر الترابط بين آيات كل سورة في تفسيره: "تبصير الرحمن وتيسير المنان بعض ما يشير إلى إعجاز القرآن" حتى عدّ هذا من أعظم الفضل والمنة من الله –سبحانه وتعالى– عليه، وقال في مقدمته: "فأمكنني أن أبرزهن من خدورهن ليرى بمرايا جمالهن صور الإعجاز من بديع ربط كلماته وترتيب آياته من بعد ماكان يعدّ من قبيل الألغاز، فيظهر به أنها جوامع الكلمات ولوامع الآيات، لا مبدل

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، (القاهرة : دار الشروق، الطبعة الثلاثون، ١٤٢٢هـ)، ٢٨/١.

(٢) يوجد هذا الكتاب كاملًا مصورًا في دار الكتب المصرية تحت رقم "٢٠٣٤٨ب"، وتوجد نسخة أخرى منه في مكتبة الكتاني بخط أندلسي واضح. ولم أطلع عليه. انظر: مقدمة تحقيق (العواصم من القواصم لابن العربي)، محب الدين الخطيب – ومحمود مهدي الاستانبولي، (بيروت: دار الجيل، ط٢، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م)، ٣٧٧/١.

(٣) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: سعيد المندوب، (لبنان: دار الفكر، ط١، ١٤١٦هـ– ١٩٩٦م)، ٢٨٨/٢، والزركشي، بدر الدين مُحَمَّد بن عبد الله بن بهادر، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: مُحَمَّد أبو الفضل إبراهيم، (بيروت: دار المعرفة، ط١٣٧٦،١هـ – ١٩٥٧م)، ٣٦/١.

لكلماته ولا معدل عن تحقيقاته، فكل كلمة سلطان دارها، وكل آية برهان جارها"[١].

ولعبد الحميد الفراهي كلام عجيب في الوحدة الموضوعية، وهو عندي أول من تكلم عن تطبيق (الوحدة الموضوعية) في سور القرآن الكريم، كما أنه أول من أفرد كتابًا لتفسير القرآن بالقرآن في كتابه: (نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان)، ومما أفاده: "أما العمود؛ فلا يكون لسورة إلا واحد، وهذا الواحد ربما يحتوي على أشياء كثيرة... وليس العمود ما هو أعظم المقاصد حقيقة؛ بل هو الشيء الجامع الذي به رباط السورة بأسرها، ولكنه أهم الأمور بيانا في سورة ذكر فيها"[٢]. وقد عنون للمقدمة السابعة (في إثبات أن السورة الواحدة لها نظام واحد)، وبيّن أن التحدي للإنس والجن إنما كان للإتيان بسورة واحدة متكاملة مترابطة، وإن كانت صغيرة، وليس بمقدار سورة من الكلام كما فهم بعض المفسرين[٣].

وبحثنا هذا يتحدث عن المقصد الرئيس لأكبر سورة في القرآن ألا وهي سورة البقرة، ونحاول أن نلتمس الحقيقة العظمى لهذه السورة المباركة.

مشكلة البحث:

المحور الرئيس والمقصد الكبير لكل سورة في القرآن أمر مهم يساعدنا على استيعاب مراد الله، وسورة البقرة –وهي أكبر سورة في القرآن– نالت كثيرًا من اجتهادات المفسرين في هذا المحور، وبحثنا ينصب في الإجابة عن الأسئلة التالية:

– ما أقوال واجتهادات أهل التفسير في الوصول إلى محور الوحدة الموضوعية لسورة البقرة؟

– ما المحور الصحيح الذي يراه الباحث ولم يذكره المجتهدون؟

((١ المهايمي، علي بن أحمد الشهير بالمخدوم، تبصير الرحمن وتيسير المنان بعض ما يشير إلى إعجاز القرآن، (مصر: مطبعة بولاق، د.ط، ١٢٩٥هـ)، ١/ ٣.

٢ الفراهي، عبدالحميد، تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، (الهند: الدائرة الحميدية، ط١، ٢٠٠٨م)، ص٤٢–٤٣.

٣ المرجع السابق، ص٤٦–٤٧.

- ما مدى صحة تطبيق ذلك على سورتي البقرة وآل عمران؟

أهداف البحث:

١/ جمع أقوال أهل التفسير واجتهاداتهم الواردة في الوصول إلى معرفة محور الوحدة الموضوعية لسورة البقرة، ومقصدها الأساس.

٢/ إثبات أن محور (المدافعة) هو المقصد الرئيس لسورة البقرة، وهو ما اكتشفه الباحث بعد طول تأمل لآياتها.

٣/ إثبات أن سورة آل عمران سورة مكملة لسورة البقرة، وأن محور المدافعة ينتظمها أيضًا.

أهمية البحث وأسباب اختياره:

١/ معرفة مقاصد السور ووحدتها الموضوعية أمر مهم لكل من أراد الوصول إلى التفسير الصحيح للآيات القرآنية ومعرفة مراد الله منها، وهو الأمر الذي اهتم به المتأخرون كثيرًا، في محاولة لإيصال المعاني القرآنية الصحيحة لأمتنا الإسلامية التي ابتعدت عن كتاب ربها.

٢/ سورة البقرة أكبر سورة في القرآن، وهي أول سورة بعد مقدمة القرآن (الفاتحة)، وقد رسمت منهجًا متكاملًا للأمّة الإسلاميّة، ومعرفة مقصدها الرئيس أمر من الأهمية بمكان لعامّة الأمة فضلًا عن علمائها.

٣/ المقصد الأساس لسورة البقرة هو المدافعة -كما سنبيّن ذلك-، وإذا أرادت أمّتنا اليوم أن تنفض عن كاهلها غبار التخلّف والهوان، فليكن لها في مقاصد سورة البقرة منهاجًا ونبراسًا، فنعي جميعًا خطورة الوضع، ونتحمّل تكاليف المسؤولية، وننظر إلى الأمم من حولنا نظرة (مدافعة) ملؤها روح التحدّي، الذي يوقظ الحسّ، ويلهب المشاعر، ويجمّع الطاقات، لنبدأ عمليّة بعث الأمة من جديد.

الدراسات السابقة:

بحسب اطلاعي القاصر، وبعد تتبعي لمراكز البحوث والمعلومات، لم أجد أي بحث خصّ سورة البقرة بالحديث عن محورها، إلا ما كان الحديث عنه عرضًا في ثنايا بعض الأبحاث والدراسات، ومن تلك الدراسات:

أولًا: البرهان في نظام القرآن (نظام سور: الفاتحة والبقرة وآل عمران): وهي رسالة دكتوراه مقدمة بجامعة الفلاح بالهند، للدكتور/ مُحَمَّد عناية الله أسد سبحاني، وقد طبعت الطبعة الأولى بدار الكتب بجدة (١٤١٤هـ- ١٩٩٤م)، وجاءت الرسالة في ٦٢٨ صفحة، وقد حاول الباحث فيها تطبيق ما نظّر له في رسالته للماجستير، والتي كانت بعنوان: **إمعان النظر في نظام الآي والسور**، وقد قسمها الباحث الى تمهيد وثلاثة أبواب، وتحدث في التمهيد عن دراسة موجزة لتفسير البقاعي، وجاءت الأبواب الثلاثة عن نظام السور الثلاثة تباعًا: الفاتحة والبقرة وآل عمران.

وقد كان غاية تركيزه في بحثه على التناسب بين آيات السورة الواحدة والربط بين كل آية والأخرى، والرد على الإشكالات الواردة في ذلك، ولم يكن له عناية بتحرير الوحدة الموضوعية للسورة ولا محورها الرئيس إلا بقليل من الكلام، وقد أوردناه أدناه.

ثانيًا: التناسب في سورة البقرة: طارق مصطفى مُحَمَّد حميدة، ١٤٢٨هـ- ٢٠٠٧م، رسالة دكتوراه، بجامعة القدس، قامت هذه الرسالة على أربعة فصول؛ حيث اضطلع الفصل الأول بالتعريف بعنوان الأطروحة، وهما سورة البقرة وموضوع التناسب، وعرض الفصل الثاني لأوجه التناسب وأنواعه في القرآن، ثم تحدث الفصل الثالث عن أوجه التناسب الداخلية في سورة البقرة، فيما تحدث الفصل الرابع والأخير عن أوجه التناسب الخارجية لسورة البقرة.

وقد خلصت الدراسة إلى أن الوحدة الموضوعية في سورة البقرة ومحورها الرئيس هو الخلافة، وهو ما خالفه فيه هذا البحث، كما أن الدكتور طارق ركّز على أوجه التناسب في السورة ولم يحظ منه المحور الرئيس بكثير استدلال.

منهج البحث:

استخدم الباحث المنهج الاستقرائي للوصول إلى أقوال العلماء في مقصد السورة، والمنهج التحليلي في سبر الآيات ومفهومها، وقد انتهج في الأمور الفنية ما ذكرته أدلّة المجلات العالمية.

إننا بحاجة الآن أكثر من أيّ وقت مضى إلى الاعتبار والنظر في مقاصد السور حتى تكون نبراسًا لنا في حسن الفهم لكتاب الله، والذي يترتب عليه حسن العمل.

وكان لزامًا على علمائنا وقادتنا الاعتبار بسنن التدافع- التي هي المقصد الرئيس لسورة البقرة- وامتلاك وسيلة التفوّق الحضاري، وفهم القرآن كما فهمه السلف الصالح، فقادوا به الحضارة وسادوا به الدنيا..

والله المستعان أولًا وآخرًا،،

المبحث الأول: أقوال المفسرين في محور السورة:

سورة البقرة التي هي سنام القرآن، هي سورة متعدّدة المواضيع ومتشكّلة الجوانب، وطويلة النصوص، ومتشعّبة في شتى ميادين الشريعة؛ ولذلك اختلفت رؤى المفسرين حول محورها ووحدتها الموضوعية بأقاويل متعدّدة، كل يراها من وجهة نظره أنها هي الأقرب.. ومع التفاوت الواقع بين المفسرين في ذلك إلا أن أقربها للنظرة الكلّية للسورة بإمكاننا أن نحصره في ثلاث أقوال:-

القول الأول: تقرير الشريعة والدفاع عنها:

وممّن ذهب إلى هذا المعنى أبو جعفر بن الزبير الغرناطي الذي قال بأن السورة بأسرها: "بيان الصراط المستقيم على الاستيفاء والكمال أخذًا وتركًا، وبيان شرف من أخذ به، وسوء حال من تنكب عنه"(١). وقد نصّ شيخ الاسلام ابن تيمية على أنها اشتملت على "تقرير أصول العلم وقواعد الدين"(٢).

وقال الطاهر بن عاشور: "ومعظم أغراضها ينقسم إلى قسمين: قسم يثبت سموَّ هذا الدين على ما سبقه، وعلو هديه وأصول تطهيره النفوس، وقسم يبين شرائع هذا الدين لأتباعه وإصلاح مجتمعهم"(٣) .

وهو موافق لكلام محمود شلتوت؛ حيث قال: "السورة تهدف في جملتها إلى غرضين هما: توجيه الدعوة إلى بني إسرائيل ومناقشتهم فيما كانوا يثيرونه حول الرسالة المحمدية من تشكيكات وشُبه... أما الغرض الثاني فهو التشريع الذي اقتضاه تكوين المسلمين جماعة

(١) الغرناطي، أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير، البرهان في تناسب سور القرآن، تحقيق: سعيد بن جمعة الفلاح، (السعودية: دار ابن الجوزي، ط١، ١٤٢٨هـ)، ص ٨٨.

(٢) ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، دقائق التفسير الجامع لتفسير ابن تيمية، تحقيق: د. مُحَمَّد السيد الجليند، (دمشق: مؤسسة علوم القرآن، ط٢،١٤٠٤هـ)، ١ / ١٩٥.

(٣) ابن عاشور، مُحَمَّد الطاهر التونسي، التحرير والتنوير، (تونس: دار سحنون للنشر والتوزيع، د.ط، ١٩٩٧م)، ١/ ٢٠٣

متميزة على غيرها، في عبادتها ومعاملاتها وعاداتها"[1].

ثم استفاض في الحديث عن تفصيل تلك التشريعات الواردة بالسورة كأحكام القصاص، والصيام، والوصية والاعتكاف، والحج والعمرة، وأحكام القتال، وأحكام اليتامى، وأحكام الطلاق والعدة، والرضاع والحيض، والخمر والميسر، والأيمان، والبيع والربا، وأحكام الإنفاق في سبيل الله.

ثم قال شلتوت: "ثم يكون الختام الأخير تعليم المؤمنين دعاءً من شأنه أن يغرس في نفوسهم سنة الله في التشريع لهم وبناء أحكامه، وتكاليفه على اليسر والوسع ودفع الحرج ومن شأنه متى أخلصوا فيه أن يأخذ بأيديهم إلى حياة سعيدة سهلة ميسرة، وييسر لهم وسائل المغفرة والنصرة... وبذلك يؤكد آخرها أولها، ويؤسس أولها لآخرها، وتصير السورة كتلة واحدة"[2].

القول الثاني: قضية البعث، والإحياء والإماتة:

يقول برهان الدين البقاعي: "مقصودها [أي سورة البقرة]: إقامة الدليل على أن الكتاب هدى ليتبع في كل ما قال، وأعظم ما يهدي إليه الإيمان بالغيب، ومجمعه الإيمان بالآخرة؛ فمداره الإيمان بالبعث الذي أعربت عنه قصة البقرة، التي مدارها الإيمان بالغيب" [3].

وقد أشار الامام ابن كثير إلى مواطن ذكر الإحياء والإماتة في سورة البقرة بقوله : "والله تعالى قد ذكر في هذه السورة ما خلقه في إحياء الموتى، في خمسة مواضع: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾، وهذه القصة [يقصد قصة البقرة]، وقصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، وقصة الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها، وقصة إبراهيم -عليه

(١) شلتوت، محمود، تفسير القرآن الكريم: الأجزاء العشرة الأولى، (القاهرة: دار الشروق، ط١٢، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٤م)، ص٥١-٥٢.

(٢) المرجع السابق، ص٥٣.

(٣) البقاعي، برهان الدين أبو الحسن إبراهيم، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، (الهند، حيدرآباد الدّكن: مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، ط١، ١٣٩١هـ)١/ ٥٥.

السلام- والطيور الأربعة. ونبّه تعالى بإحياء الأرض بعد موتها، على إعادة الأجسام بعد صيرورتها رميمًا"[١].

وإضافة إلى ما ذكر ابن كثير نجد أيضًا: قصة إبراهيم مع النمرود وتحدّيه في من يحيي ويميت.. وهناك صور أخرى من الإحياء داخلة في المعنى العام للإحياء، مثل: قصة خلق آدم وإحيائه من العدم، وإنجاء بني إسرائيل من الذبح هو إحياء لهم ولمن بعدهم، وقصة إحياء مكة واستجابة الله لإبراهيم واسماعيل -عليهما السلام- بجعلها بلدًا آمنًا، كما أن هناك صورة الإحياء المعنوي: ببعث الأمم من بعد موتها، كما سيمرّ معنا في قصة طالوت، وبعثة مُحَمَّد -ﷺ- بالرسالة هي إحياء للعالمين أيضًا من بعد موات.

القول الثالث: الخلافة والاستخلاف:

قال البقاعي: "بداية هذه السورة هداية، وخاتمتها خلافة، فاستوفت تبيين أمر النبوة إلى حد ظهور الخلافة، فكانت سنامًا للقرآن"[٢]، ويكاد يتفق جمهور المعاصرين على أن محور السورة يدور حول الخلافة في الأرض ومقوّماتها وأهلها.

وهذا يتوافق مع مضمون السورة إلى حدّ كبير؛ ولذلك تواطأ عليه بعض القدامى وجمهرة المعاصرين؛ وذلك أن السورة استفتحت بالحديث عن القرآن وموقف الناس حياله، ثم تحدثت بعد ذلك عن خلافة آدم، وتحدثت حديثًا مطولًا عن بني إسرائيل، وذكرت طرفًا من مثالبهم، مما كان داعيًا ألا ينالوا عهد الله، ثم انتقل الحديث إلى المسلمين ليخاطبهم بموجبات الخلافة.

وقد رأى بعض المعاصرين أن يكون المحور كالتالي: (منهج خلافة الله في الأرض بين من أضاعوه ومن أقاموه)، وأن هذا المحور يتناسب مع موضوعات السورة ومع ملابسات نزولها؛ فسورة البقرة أول سورة نزلت بالمدينة، وقد صار للمسلمين عندئذٍ دولة وأرض، فناسب أن

(١) ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن مُحَمَّد سلامة، (الرياض: دار طيبة، ط٢، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م)، ١ / ١١٢.

(٢) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ١/٥٦٠.

يخاطبوا لوراثة الاستخلاف الإلهي له[1].

القول الرابع: الهداية:

يرى (المودودي) أن المحور الرئيس لسورة البقرة أنها: دعوة لقبول الهداية الإلهية، وكل القصص والحوادث التي وردت بها تدور حول هذه الفكرة المركزية، وفيها ذكر اليهود على وجه الخصوص بحوادث تاريخية متعددة مستوحاة من سيرتهم الخاصة كي يذكرهم الله وينصحهم بأن صلاحهم وخيرهم يكمن في قبول هذه الهداية المنزلة على النبي –صلى الله عليه وسلم؛ ولذا فعليهم أن يكونوا أول من يؤمن بها لأنها –في أصلها وأساسها– هي نفس الهداية التي أنزلت على نبيهم موسى عليه السلام(٢).

القول الخامس: مجادلة اليهود:

يقول (مُحَمَّد رشيد رضا): "سورة البقرة أجمع سور القرآن لأصول الإسلام وفروعه، ففيها بيان التوحيد والبعث والرسالة العامة والخاصة وأركان الإسلام العملية وبيان الخلق والتكوين وبيان أحوال أهل الكتاب والمشركين والمنافقين في دعوة القرآن ومحاجة الجميع وبيان أحكام المعاملات المالية والقتال والزوجية، والسور الطوال التي بعدها متممة لما فيها، فالثلاث الأولى منها مفصلة لكل ما يتعلق بأهل الكتاب ، ولكن البقرة أطالت في محاجة اليهود خاصة"(٣).

وفي كل مجال من هذه المجالات التي تناولتها سورة البقرة تفصيلًا، كان لليهود ذكر فيها، نظرًا لأنهم النموذج المنحرف الذي كلف بالتكاليف الشبيهه بما كلف به المسلمون، ولكنهم غيروا وبدلوا وانحرفوا(٤).

ولكي نفهم هذا المحور فهمًا تامًا علينا أن نضع في أذهاننا عدة نقاط هامة:

(١) مصطفى مسلم ومجموعة باحثين، التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (الإمارات: جامعة الشارقة، ط ١، ١٤٣١هـ – ٢٠١٠ م)، ١/٢٧.

(٢) المودودي، أبو الأعلى، تفهيم القرآن، تعريب : أحمد إدريس، (الكويت ، دار القلم، الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ) ص٤٣.

(٣) رشيد رضا، مُحَمَّد، ١٣٥٠هـ، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، (مصر: مطبعة المنار، ط٢، د.ت)٧ /٢٨٨.

(٤) مصطفى مسلم، معالم قرآنية في الصراع مع اليهود، (دمشق، دار القلم، الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ)، ص ٥٨.

أ – إن هذا الحديث يهدف إلى دعوة أتباع الأنبياء السابقين (اليهود والنصارى) – الذين كانوا لا يزالون في عجز عن إصلاح أنفسهم– إلى فهم رسالة مُحَمَّد –ﷺ– وقبولها، ولهذا فقد أخبرهم الله فيه بأن رسالة القرآن هي عين رسالة الكتب التي نزلت على الأنبياء السابقين، وأن مهمة مُحَمَّد –عليه الصلاة والسلام– هي نفس مهمة من سبق من الأنبياء؛ فكأن هذا الخطاب يقصد أن يقول لهم: لقد أسندت إليكم هذه المهمة أول الأمر لكي تنفذوها وتدعوا العالم لقبولها والإيمان بها لكنكم طرحتم هداية الله وتدليتم إلى أعماق الانحطاط، وما تاريخ أمتكم الماضي وانحطاطها الخلقي والديني الراهن سوى خير شاهد عليكم، وها هو عبد آخر من عباد الله أرسله بنفس الرسالة ولتنفيد المهمة أيضًا، وليس في هذا شيء غريب أو جديد عليكم، فينبغي إذن ألا تعارضوا الحق وأنتم تعلمونه، وخير لكم أن تؤمنوا به، وتتعاونوا مع من يؤمنون بنفس ما أرسل إليكم من قبل[1].

ولذلك قيل لما فسر ابن عباس ﷺ سورة البقرة في الحج: "فسرها تفسيرًا لو سمعته الروم والترك والديلم لأسلموا"(٢).

ب – كذلك يرمي هذا الخطاب إلى مناقشة اليهود، والبرهنة على فسادهم وكشف انحطاطهم الديني والخلقي، لذا نرى آياته تثبت إثباتًا قاطعًا خطأ موقفهم من الإسلام حين كانوا يعارضونه مع أنهم كانوا يعترفون في الوقت نفسه بأن مبادئه وأسسه هي بالفعل عين مبادىء دينهم، وأن القرآن ليس فيه ما يخالف التوراة أو يعارض تعاليمها من حيث المبدأ.

كما أن هذا الخطاب يبيّن أيضًا أن اليهود فشلوا تمامًا في اتباع ما أعطاهم الله من هداية، وأخفقوا كل الإخفاق في القيام بمسؤوليات وواجبات الزعامة التي أسندت إليهم، ولإثبات هذا سيقت حوادث من تاريخهم وقصصهم لا يستطيعون لها إنكارًا أو رفضًا.

فلقد أنعم الله على بني إسرائيل بالنبوة والكتاب، وجعلهم للناس إمامًا وأسند إليهم

١)) أبو الأعلى المودودي، تفهيم القرآن، ص٦٧.

(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ١/٨.

لواء الزعامة لهداية البشرية أجمعين؛ لكنهم حرموا أنفسهم نعمة الزعامة بدخولهم في مداخل السوء، وسقوطهم في قذارة النزوات والرغبات الدنيوية وجنوحهم إلى النفاق وفعل الشر والمعرفة الزائفة(١).

ج – سبب اختيار بني إسرائيل نموذجًا هو أنهم الأمة الوحيدة التي يعدّ تاريخها خلال الأربعة آلاف سنة الأخيرة درسًا وعبرة حيّة لكل أمم العالم، إذ تبدو في روايته كافة الارتفاعات والانخفاضات والارتقاءات والتنزلات التي تنجم عن السير وفق هداية الله أو نبذها والتنكر لها.

وقد مرّ بنو إسرائيل بعدّة مراحل في الهزيمة ثم الانتصار.. والذلّة ثم الاعتزاز.. والتشرذم والشتات ثم الاجتماع والتوحّد.. والإشراك الوثني ثم التوحيد الخالص.. هذه المراحل هي في حقيقتها مؤشّرات لارتفاع الأمم وهبوطها.. وهو ما تحتاج معرفته الأمة المحمديّة –وهي وارثة الرسالات– لتنظر بعين الاعتبار إلى تقلّبات التاريخ، وسنن التدافع.

"إن بني إسرائيل هم أصحاب آخر دين قبل دين الله الأخير، وقد امتدّ تاريخهم قبل الإسلام مدة من التاريخ طويلة، ووقعت الانحرافات في عقيدتهم، ووقع فيهم النقض المتكرر لميثاق الله معهم ووقع في حياتهم آثار هذا النقض وهذا الانحراف، كما وقع في أخلاقهم وتقاليدهم .. فاقتضى هذا أن تلم الأمة المسلمة – وهي وارثة الرسالات وحاضنة العقيدة الربانية بجملتها – بتاريخ القوم وتقلبات هذا التاريخ، وتعرف مزالق التاريخ وعواقبها، ممثلة في حياة بني إسرائيل وأخلاقهم، لتضم هذه التجربة –في حقل العقيدة والحياة– إلى حصيلة تجاربها، وتنتفع بهذا الرصيد على مدار القرون، ولتتقي بصفة خاصة مزالق الطريق ومداخل الشيطان، وبوادر الانحراف، على هدي التجارب الأولى"٢، "ومعلوم أن أعظم المؤمنين قبلنا هم بنو إسرائيل"٣.

(١) المودودي، تفهيم القرآن، ص ١٤٢.

(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن٢، / ٨٦٨.

(٣) ابن تيمية، أحمد بن عبدالحليم، الاستقامة، تحقيق: د . محمد رشاد سالم، (جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة =

إن تجربة بني إسرائيل ذات صحائف شتى في المدى الطويل، وقد عُلِم أن الأمد حين يطول على الأمم تقسو قلوبها، وتنحرف أجيال منها، وأن الأمة الإسلامية التي سيمتد تاريخها حتى تقوم الساعة، ستصادفها مراحل تمثل فيها مراحل من حياة بني إسرائيل، فجعل أمام أئمة هذه الأمة وقادتها، ومجدّدي الدعوة في أجيالها الكثيرة، نماذج من العقابيل التي تلمّ بالأمم، يعرفون منها كيف يعالجون الدّاء بعد معرفة طبيعته.

ذلك أن أشدّ القلوب استعصاء على الهدى والاستقامة هي القلوب التي عرفت ثم انحرفت، فالقلوب الغفل الخامة أقرب إلى الاستجابة؛ لأنها تفجأ من الدعوة بجديد يهزها، وينفض عنها الركام، لجدّته عليها، وانبهارها بهذا الجديد الذي يطرق نظرتها لأول مرة.

فأما القلوب التي نوديت من قبل، فالنداء الثاني لا تكون له جدّته، ولا تكون له هزّته، ولا يقع فيه الإحساس بضخامته وجدّيته، ومن ثم تحتاج إلى الجهد المضاعف وإلى الصبر الطويل[١].

د – رغم أن هذا الخطاب موجه إلى اليهود بذاتهم، إلا أنه قصد به كذلك تحذير المسلمين من السقوط فيما سقط فيه أتباع الأنبياء السابقين.

وهذا هو سبب إشارة القرآن فيه إلى انحطاطات اليهود الخلقية وإيراد تصوراتهم المستغربة وأفكارهم الخاطئة عن الدّين، وذكر طرقهم الضالة في التفكير وأساليبهم الساقطة في العيش والحياة واحدة بواحدة[٢].

وتكشف لنا سورة البقرة عن أسباب عدم صلاحية بني إسرائيل لقيادة البشرية، ومع أننا –نحن المسلمين– نؤمن بالاختيار الربّاني لبني إسرائيل لقرون طويلة، وتلك قضية لا يؤمن بها العلمانيون والليبراليون من أبناء جلدتنا.. إلا أننا نؤمن أيضًا أنهم نقضوا العهد الذي أخذه

=

الأولى ١٤٠٤هـ) ٢ / ٢٠٥.

١سيد قطب ، في ظلال القرآن٢ / ٨٦٩.

(٢) أبو الأعلى المودودي، تفهيم القرآن، ص٦٧–٦٨.

الله عليهم بالطاعة والاتباع، ودخل دينهم التحريف، واستحقوا غضب الله، فاستبدلهم الله بالأمّة المحمّدية التي حملت الأمانة من جديد؛ لأن القضيّة في محورها هي قضية التطبيق الصحيح لدين الإسلام، ولا التفات في الإسلام إلى القوميّات والعرقيّات. فالإسلام اليوم، وأمس الراحل، وغدًا القادم، هو دين واحد لجميع الأنبياء، ويسعى لإقامة المجتمع الربّاني الذي يقوم بالعبودية لله، وينشر العدل بين العالمين.

"قال الحرالي: ولما كان حضرة الدين إنما هو الجهاد الذي فيه بذل الأنفس وإنفاق الأموال كثرت فيه مواعظ القرآن وترددت، وعرض لهذه الأمة بإعلام بما يقع فيه، فذكر ما وقع من الأقاصيص في الأمم السالفة وخصوصًا أهل الكتاب من بني إسرائيل ومن لحق بهم من أبناء العيص، فكانت وقائعهم مثلًا لوقائع هذه الأمة، فلذلك أحيل النبي ﷺ على استنطاق أحوالهم بما يكشفه الله -سبحانه وتعالى- له من أمرهم عيانًا، وبما ينزله من خبرهم بيانًا"[1].

وقد ظهر من القرآن ومن السيرة أن اليهود هم أول من واجه الدعوة الإسلامية بالعداء والكيد؛ أولًا في المدينة، ثم في الجزيرة العربية كلها، فاحتضنوا النفاق والمنافقين، وحرضوا المشركين وتآمروا معهم على الجماعة المسلمة، كل ذلك قبل أن ينفروا بوجوههم في الحرب المعلنة الصريحة فلم يكن بد من كشفهم للجماعة المسلمة لتعرف من أعداؤها؟ ما طبيعتهم؟ وما تاريخهم؟ وما وسائلهم؟ وما حقيقة المعركة التي نخوضها معهم؟[2]

ولعل هذا الأمر ليس خاصًا بجيل الصحابة فقط، بل سيخدم مراحل وعهودًا جاءت بعد جيل الصحابة إلى يومنا هذا، والذي أخذ فيه الصراع مع اليهود أبعادًا أخرى.

وهذا شيء معجز حقًّا، إذ علم الله أن الصراع مع أمة بني إسرائيل ليس صراعًا وقتيًا في عهد مُحَمَّد ﷺ بل هو صراع دائم وقائم إلى عهد نزول المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام.

"وفي هذا يلفت القرآن أنظار الإنسانية إلى أن هؤلاء هم مصدر الشر والإفساد في

(١) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ٣/٣٨٦-٣٨٧

(٢) سيد قطب ، معركتنا مع اليهود، (القاهرة ، دار الشروق ، الطبعة الحادية عشر ١٤١٣هـ)، ص ٣٤

الإنسانية كلها، في طول الأرض وعرضها وفي كل مكان ينزلون وعلى أي موضع يكونون هم شياطين الشياطين، وأعدى أعداء الإنسان، وأفحش الخلق على الأديان، فهم شر الدواب، وعنوان الخراب، ونموذج العذاب.

ولعل الذي نفهم من حكمة الله في الإبقاء عليهم هو أن يستيقظ بتوالي عدوانهم المؤمنون فيستعدوا، وأن ينتبه لهم أفهام العاملين فيجدوا، وأن يستبصر المعتبرون بهم فيتمسكوا بدينهم، وأن يعتبر المستبصرون بهم فيرجعوا إلى ربهم، ليرجع إليهم بأسهم الشديد وعزمهم الحديد وتخطيطهم الرشيد، وسلوكهم القوي الأكيد، فيطهروا الأرض من أرجاس اليهود ويجعلوهم لنار الحرب هم الوقود"[١].

كل هذا يجعلنا نفهم لماذا ركزت سورة (البقرة) –وهي سورة مدنية[٢] بالإتفاق– عن الحديث عن بني إسرائيل وتاريخهم، حتى قال بعض علماء القرآن: كل سورة فيها قصص الأنبياء والأمم السابقة فهي مكية[٣] سوى البقرة.

ولئن كانت أغلب قصص بني إسرائيل نزلت في العهد المكي، ولكنها هناك كانت تذكرًا لتثبيت القلة المؤمنة في مكة بعرض تجارب الدعوة وموكب الإيمان الواصل منذ أول الخليقة، وتوجيه الجماعة المسلمة بما يناسب ظروفها في مكة، أما –هنا في سورة البقرة– فالقصد هو كشف حقيقة نوايا اليهود ووسائلهم وتحذير الجماعة المسلمة منها، وتحذيرها كذلك من الوقوع في مثل ما وقعت فيه قبلها يهود .. وبسبب اختلاف الهدف بين القرآن المكي والقرآن المدني اختلفت طريقة العرض، وإن كانت الحقائق التي عرضت هنا وهناك عن انحراف بني إسرائيل ومعصيتهم واحدة[٤].

(١)طعيمة، صابر، بنو إسرائيل بين نبأ القرآن الكريم وخبر العهد القديم، (بيروت: عالم الكتب، ط١، ١٤٠٤هـ – ١٩٨٤م)، ص١٢٠

(٢) مدنية : أي أنزلت بعد الهجرة.

(٣) مكية : أي نزلت قبل الهجرة.

(٤) سيد قطب، في ظلال القرآن ٦٦/١.

المبحث الثاني: محور السورة بين (الخلافة) و(المدافعة):

رأينا في استعراضنا للأقوال في محور سورة البقرة، قوّة قول من قال بأن محورها (الخلافة والاستخلاف).

والذي بدا للباحث بعد نظر وتأمل أن المحور الرئيس هو **المدافعة**، وهو معنى قريب جدًا من مفهوم **الخلافة والاستخلاف**، والذي هو مؤدّى ونتيجة المدافعة، وسنة الله في **الدّفع** و**الدفاع** قائمة على استجلاب عوامل النصر وفهم حقيقة الصراع.

والقول بالمدافعة وإن كان قولًا جديدًا -فيما أحسب- إلا أنه هو الراجح لانتظامه جميع آيات سورة البقرة، وذلك أن سورة البقرة لا تخرج في محتواها عن خمس مقاصد فرعية تدور كلها في فلك المدافعة، كأدوات ووسائل لا يمكن الاستغناء عنها في المدافعة بمفهومها الشامل؛ ألا وهي:

١/ **تصنيف الخلق**: وهو ما ظهر جليًّا من أول السورة، حيث صنفت أهل الحق والباطل: المؤمنون-الكافرون- المنافقون؛ وهذه في مجملها هي الفِرق التي سيحصل بينها التدافع.

٢/ **تأسيس العقيدة**: حيث كانت قاعدة التوحيد ونبذ الشرك ظاهرة في كثير من الآيات عبر الخطاب المباشر أو بالمثال: كضرب مثل البعوضة وقصة بداية خلق آدم -عليه السلام- وقصة البقرة... الخ

٣/ **تبيين الأعداء**: فسيرة اليهود ومسيرة التاريخ الإسرائيلي ظاهرة في الآيات، كما أوضحنا ذلك في قول من قال أن السورة جاءت في مجادلة أهل الكتاب.

٤/ **إحكام الصف الداخلي**: وذلك بضبط المجتمع الإسلامي بالأحكام الشرعية التعبدية، والقوانين الاجتماعية، فتشريعات الصيام والحج ومقومات الأسرة وأحكام الطلاق والرضاع وأحكام الوصية وغيرها ظاهرة في الآيات.

٥/ الدفع بالنفع والبذل: ولا شك أن الأموال لها دور كبير في اتخاذها وسيلة قوية للمدافعة، ولذا جاءت سورة البقرة لتتحدث عن أحكام الصدقات وأنواعها، وأموال الديون، والوصايا، والمال المتخذ للجهاد، وأحكام الربا و... و...الخ.

وخطّ المدافعة لا ينتظم فقط سورة البقرة؛ بل ينتظم أيضًا سورة آل عمران، فكلا السورتين تدور في فَلَك شرح سنّة التدافع –سيمرّ معنا في الحديث عن أوجه المشابهة بين السورتين–، والنبي –ﷺ– قد جمع بينهما في أكثر من حديث، فكل سورة مكمّلة للأخرى ومتمّمة لها.

ولذلك فالباحث يزعم أن سرّ سورة البقرة ومفتاحها في قوله سبحانه: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ومما يقوي ما ذهب إليه البحث أن الله –سبحانه– لخّص سورة البقرة في آخر آية منها، ولنتأمل فيها:

أ/ ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾: ولا شك أن إقامة الشريعة، والقيام بالتكاليف من اعظم مقومات النصر، وسورة البقرة –كما نعلم– هي سورة التكاليف التي كلفت بها الجماعة المؤمنة، فمن علم هذه التكاليف وعمل بها كان جديرًا ان يكون خليفة الله في الارض[1].

وإذا لاحظنا آحاد ومفردات التكاليف الشرعية في سورة البقرة سنجد شمولها لأركان الإسلام الخمسة، وأحكام وتكاليف أخرى في العبادات والمعاملات، وهي في مجموعها تكاليف ومهام شرعية ترفع مستوى الأمة ولا ترهقها، لتكون على المستوى الحضاري المطلوب للنصر، وبواجب المدافعة.

ب/ ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ

(١) عباس، فضل حسن، القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته، (عمان: دار الفرقان، ط ١، ١٩٨٥م) ، ص ٥٤.

﴿مِن قَبْلِنَا﴾: محاولة المؤمنين تلمّس طريق النصر من بين ركام الأخطاء والمزلّات في الطريق، مع الاستفادة من تجارب الامم الماضية وعلى رأسها أمة بني إسرائيل في نهضة الأمم، وألّا تكرر الأمة المحمدية تلك الأخطاء التي وقع فيها من قبلنا، الذين لم يفهموا حقيقة **المدافعة** إلا فترة قصيرة من الزمن.. وانتظروا حصول النصر بدون بذل سببه، وارتقبوا دفع الباطل بصيحة من السماء لا بأيديهم الدافعة.

ج/ ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۖ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾: إنها قمة الالتزام بالتكاليف وأسباب النصر، وربط إرادتهم بأمر الله سبحانه، مع تحقيق غاية اللجوء والتوكل على الله، فهما عمل البشر فهم ليسوا في غنى عن الرحيم الذي ييسر الأمور ويعين على صوارف الدهر، ويقدّر الأقدار بدفع الباطل وإحقاق الحق. وأن الباطل مهما تمادى فلن يستأصل شأفة الحق بالكلّية، ويقع مالا طاقة لنا به.

د / ﴿أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾: فإذا ما حققنا أسباب النصر، وجعلنا الله مولانا ومرجعنا في تصوّراتنا وأعمالنا، فإننا حينذاك سنرتقب النصر ودفع الباطل وانجلاء الليل.

لقد وفّقت الأمة المحمّدية لهذا الدعاء الذي جاء في خاتمة سورة البقرة، ليدلّل على أن هذه الأمة المنصورة بعثت استجابة لدعوة إبراهيم –عليه السلام، في ثنايا سورة البقرة، ومن المعلوم أن هذا الدعاء العظيم الضارع الخاشع لم يكن نتيجة الوهن والضعف، وإنما كان نتيجة احساس بضخامة المهمة وعظم المسؤولية الملقاة على عاتق الأمة المحمدية.

ومن العجيب جدًا أن تجد إجابة هذا الدعاء في خاتمة سورة آل عمران وهي شقيقة البقرة – كما ذكرنا: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّن

بَعْضٍ ﴾[١] جاءت في مقابل: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ﴾[٢] ثم تمضي خاتمة سورة آل عمران بالحديث عن مصير القوم الكافرين: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾[٣] إلى أن تختم بأهم وصايا رجاء النصر ودفع الباطل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٤] ، "فالدعاء في الأولى -أي البقرة - يناسب بدء الدين لأن معظمه فيما يتعلّق بالتكليف وطلب النصر على جاحدي الدعوة ومحاربي أهلها، وفي الثانية -أي آل عمران- يناسب ما بعد ذلك لأنه يتضمن الكلام في قبول الدعوة وطلب الجزاء عليه في الآخرة"[٥].

وهذا المقصود لسورة البقرة -أعني المدافعة- هو قريب من المعنى الذي أشار إليه **سيد قطب** بقوله: "هذه السورة تضم عدة موضوعات، ولكن المحور الذي يجمعها كلها محور واحد مزدوج، يترابط الخطان الرئيسان فيه ترابطًا شديدًا؛ فهي من ناحة تدور حول موقف بني إسرائيل من الدعوة الاسلامية في المدينة، واستقبالهم لها ومواجهتهم لرسولها وللجماعة المسلمة الناشئة على أساسها، وسائر ما يتعلّق بهذا الموقف بما فيه تلك العلاقة القوية بين اليهود والمنافقين من جهة، وبين اليهود والمشركين من جهة أخرى.

وهي من الناحية الأخرى تدور حول موقف الجماعة الإسلامية في أول نشأتها، وإعدادها لحمل أمانة الدعوة والخلافة في الأرض، بعد أن تعلق السورة نكول بني إسرائيل عن حملها، ونقضهم لعهد الله بخصوصها، وتجريدهم من شرف الانتساب الحقيقي لإبراهيم -عليه السلام- صاحب الحنيفية الأولى، وتبصير الجماعة المسلمة وتحذيرها من العثرات التي سببت

(١) سورة آل عمران، آية: ١٩٥.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٨٦.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٩٦.

(٤) سورة آل عمران، آية : ٢٠٠.

(٥) محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، ٣/ ١٥٣.

تجريد بني إسرائيل من هذا الشرف العظيم... وكل موضوعات السورة تدور حول هذا المحور المزدوج بخطيه الرئيسين"(١).

– وحينما نقول: إن هذا هو المحور الرئيس لسورة البقرة؛ فإن هذا لا يعني أن السورة أغفلت جوانب أخرى فهذه السورة الكريمة "لكونها سنام القرآن ذكر فيها كليات الأحكام الدينية من الصيام والحج والصلاة والجهاد على نمط عجيب، مستطردًا تارة للاهتمام بشأنها، يكرّ عليها كلما وجد مجال، وفيها مقصود آخر بالدلالة على أن المؤمن المخلص لا ينبغي أن يشغله حال عن حال، وأن المصالح الدنيوية ذرائع إلى الفراغة للمشاغل الأخروية"(٢).

المبحث الثالث: العلاقة والتناسب بين (البقرة) و(آل عمران) في محور (المدافعة):

لقد قرن النبي –ﷺ– بين سورتي البقرة وآل عمران في بعض أحاديثه الشريفة؛ حيث وصفها بالزهراوين، وأنه يؤتي بالقرآن وأهله الذين كانوا يعملون به في الدنيا تقدمهم سورة البقرة وسورة آل عمران كأنهما غمامتان أو غيايتان، أو كأنهما فرقان من طير صوافّ تحاجّان عن صاحبهما.

ومثل هذه الأحاديث التي تجمع السورتين في سياق واحد كأنهما توأمان يؤدّيان في تكامل ذات المهمة. وقد ذكر السيوطي أن بين سورة آل عمران وسورة البقرة اتحادًا وتلاحمًا متأكّدًا (٣).

وبعد تأمل الباحث في السورتين وجد أن هناك خيطًا رفيعًا مشتركًا بينهما بقوّة، ألا وهو محور **المدافعة**، وحتى لا أكون مبالغًا في كلامي، أو أن أرمي برأيي جزافًا، فإني أستدل

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن ، ١ / ٢٨.

(٢) الألوسي، روح المعاني٢/١٦٣

(٣) السيوطي، عبدالرحمن بن أبي بكر، تناسق الدرر في تناسب السور، تحقيق: عبدالقادر عطا، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٦هـ–١٩٨٦م)، ص ٧٣

على ذلك بأوجه واضحة من التشابه بين السورتين حول قضية المدافعة:

أولًا: في الصراع بيننا وبين بني إسرائيل نلحظ التالي:-

أ/ سورة البقرة تذكر تاريخ بني إسرائيل إلى عهد موسى -عليه السلام، ومن بعد عهده إلى زمن طالوت وداود -عليه السلام، ثم تجيء سورة آل عمرآن لتكمل هذه السلسلة، وتقص علينا أنباء آل عمران إلى عهد عيسى -عليه السلام.

ب/ سورة البقرة يغلب عليها طابع الدعوة والتوجيه؛ فهي تدعو بني إسرائيل وترشدهم إلى أن يثوبوا إلى رشدهم، وإن كانت هذه الدعوة والتوجيه لا تخلو في كثير من الأحيان من اللوم والتعنيف؛ بينما سورة آل عمرآن تنبه المسلمين إلى كيدهم، وتحذرهم من شرّهم، وتكشف لهم ما يبيّتون لهم حتى يكونوا على حذر منهم(١).

جـ/ سورة البقرة تخاطب جماهير اليهود والنصارى، وتتحدث عنهم، بينما سورة آل عمرآن تخاطب علماءهم وأحبارهم وتتحدث عنهم(٢).

د /كلتا السورتين قد جاءتا في مهاجمة أهل الكتاب، ولكن سورة البقرة أفاضت في محاجّة اليهود، واختصرت في محاجّة النصارى، بينما آل عمران بالعكس فقد أفاضت في محاجّة النصارى، ومن المعلوم أن النصارى متأخرون عن اليهود في الوجود وفي الخطاب بالدعوة إلى الإسلام (٣).

هـ / تلتقي السورتان في واجب الإيفاء بالعهد من بني إسرائيل، حيث أنهم قد أخذ عليهم العهد على لسان رسلهم أن يؤمنوا بهذا القرآن، كما أخذ منهم العهد على أن يؤمنوا بهذا الرسول عليه الصلاة والسلام. وقد ذُكِر هذان العهدان في هاتين السورتين عدّة مرات(٤).

(١) سبحاني، محمّد عناية الله أسد، البرهان في نظام القرآن (نظام سور: الفاتحة والبقرة وآل عمرآن)، (جدة: دار الكتب، ط١٤١٤،١هـ - ١٩٩٤م)، ص ٥٩٤ (بتصرف).

(٢) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٣) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار ، ٣/ ١٥٣.

(٤) سبحاني، البرهان في نظام القرآن ، ص ٥٩٢.

ثانيًا: التركيز والإهتمام في السورتين على مقومات النصر وسبل المدافعة، والتي نلحظها في التالي:-

أ/ نجد أن سورة البقرة كانت مرحلة إعداد وتربية للجهاد، ومرحلة حث وتحريض عليه، فقد جاءت سورة البقرة والمسلمون يعانون من ضعف ويتهيؤون لبدر؛ بينما سورة آل عمران لتنتقل بهؤلاء المؤمنين من مرحلة الإعداد والتربية إلى مرحلة التنفيذ والتطبيق، فدخلت بهم في معركة فاصلة بين الاسلام والكفر، ثم تناولت أحداث تلك المعركة بالتفصيل ليكون ذلك إعدادًا لما يتبعها من المعارك[1].

ب/ نلحظ الاهتمام بجانب **الدعاء** والاتصال برب السماء كسبب مهم في النصر في المعارك في كلتا السورتين أيضًا، "فمثلًا دعاء المؤمنين أن ينصرهم الله على القوم الكافرين، جاء في البقرة في استقبال معركة تودع الاستضعاف وتستقبل التمكين: قصة طالوت الشبيهة بغزوة بدر. والثانية قول الأنبياء والربيّين الذين معهم عقب الذي أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا، كحال الصحابة في أحد خاطبهم القرآن ألا يهنوا ولا يحزنوا، وأشاد بهم أنهم استجابوا لله ولرسوله من بعد ما أصابهم القرح"[2].

ومن ذلك الدعاء أيضًا دعاء إبراهيم -عليه السلام-: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [3]، واستجابة الله لذلك الدعاء في سورة آل عمرآن: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾[4].

-كما نلاحظ أيضًا الأدعية الضارعة في خاتمة كلتا السورتين.

(١) مرجع سابق، ص ٣٩٥ (بتصرف).

(٢) حميدة، طارق مصطفى محمد، التناسب في سورة البقرة، رسالة دكتوراه (القدس:جامعة القدس، د.ط، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م)،ص١٨١.

(٣) سورة البقرة ، آية ١٢٩.

(٤) سورة آل عمرآن، آية ١٦٤.

جـ/ ركّزت سورة البقرة على مجموعة كبيرة من التكاليف الشرعية والأحكام المنوطة بالفرد والمجتمع، بينما نجد سورة آل عمران لم تتناولها إلا بشيء يسير، ولكنها ركّزت على إقامتها بالحثّ الكبير على جانب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذلك لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو الضمان الوحيد لانتصارهم على العدو، وأنه لا عبرة بالتكاليف مالم تطبق، ويكون لها سياج شرعي يحميها من لوثات الهوى والنسيان.

ثالثًا: دعوة إبراهيم –عليه السلام–: فقد أطالت سورة البقرة بذكر النواحي التاريخية لقصة إبراهيم ودعوته، بينما تأتي سورة آل عمران لتذكر الآثار التطبيقية لهذه الدعوة المباركة، ودعوة أهل الكتاب وأمم الأرض جميعًا بأتباعها، وبما جاء فيها من خالص التوحيد والحنيفية السمحة، واتخاذ البيت الذي ببكّة موئلًا ومقصدًا لتعظيم حرمات الله، وهدى للعالمين[1].

(١) تركنا الاستدلال بكثير من الآيات القرآنية في هذا المبحث خشية الإطالة، ولاعتقادي أن القارئ المسلم سيستحضر في ذهنه كثيرًا منها بمجرد الإشارة بالمعنى.

الخاتمة:

وفيها أبرز النتائج:

١/ عبد الحميد الفراهي أول من تكلم عن تطبيق (الوحدة الموضوعية) في سور القرآن الكريم، كما أنه أول من أفرد كتابًا لتفسير القرآن بالقرآن في كتابه: (نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان).

٢/ محور (المدافعة) هو المقصد الرئيس لسورة البقرة.

٣/ سورة آل عمران سورة مكملة لسورة البقرة، ومحور المدافعة ينتظمها أيضًا، وذلك بأوجه واضحة من التشابه بين السورتين حول قضية المدافعة

٤/ يكاد يتفق جمهور المعاصرين على أن محور السورة يدور حول الخلافة في الأرض ومقوّماتها وأهلها.

٥/ سبب اختيار بني إسرائيل نموذجًا هو أنهم الأمة الوحيدة التي يعدّ تاريخها خلال الأربعة آلاف سنة الأخيرة درسًا وعبرة حيّة لكل أمم العالم، إذ تبدو في روايته كافة الارتفاعات والانخفاضات والارتقاءات والتنزلات التي تنجم عن السير وفق هداية الله أو نبذها والتنكر لها.

٦/ سورة البقرة لا تخرج في محتواها عن خمس مقاصد فرعية تدور كلها في فلك المدافعة، كأدوات ووسائل لا يمكن الاستغناء عنها في المدافعة بمفهومها الشامل؛ ألا وهي:

١- تصنيف الخلق. ٢- تأسيس العقيدة.

٣-تبيين الأعداء. ٤- إحكام الصف الداخلي.

٥- الدفع بالنفع والبذل

٧/ مما يقوي ما ذهب إليه البحث أن الله سبحانه لخّص سورة البقرة في آخر آية منها.

توصيات:

لعل أبرز ما في الأمر نصيحتي للباحثين في درر التفسير أن يولوا اهتمامهم بمقاصد السور؛ سواء كان بحثًا فرديًا أو على مستوى مشاريع المؤسسات والجامعات.. والله المستعان أولًا وآخرًا.

المراجع:

[١] الألوسي، شهاب الدين محمود البغدادي، د.ت، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، د.ط، بيروت: دار إحياء التراث العربي.

[٢] البقاعي، برهان الدين أبو الحسن إبراهيم، ١٣٩١هـ، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ط١، الهند، حيدرآباد الدّكن: مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية.

[٣] ابن تيمية ، أحمد بن عبدالحليم،١٤٠٤هـ ، الاستقامة ، تحقيق: د . مُحَمَّد رشاد سالم ، الطبعة الأولى جامعة الإمام مُحَمَّد بن سعود الإسلامية.

[٤] ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، ١٤٠٤هـ، دقائق التفسير الجامع لتفسير ابن تيمية، تحقيق : د. مُحَمَّد السيد الجليند، ط٢، دمشق: مؤسسة علوم القرآن.

[٥] حميدة، طارق مصطفى مُحَمَّد، ١٤٢٨هـ- ٢٠٠٧م، التناسب في سورة البقرة، رسالة دكتوراه، القدس: جامعة القدس.

[٦] رشيد رضا، مُحَمَّد، ١٣٥٠هـ، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، ط٢، مصر: مطبعة المنار.

[٧] سبحاني، مُحَمَّد عناية الله أسد، ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م، البرهان في نظام القرآن (نظام سور: الفاتحة والبقرة وآل عمران)، ط١، جدة: دار الكتب.

[٨] سيد قطب إبراهيم، ١٤٢٢هـ، في ظلال القرآن، ط٣٠، القاهرة: دار الشروق.

[٩] سيد قطب ، ١٤١٣هـ، معركتنا مع اليهود، الطبعة الحادية عشر، القاهرة ، دار الشروق.

[١٠] السيوطي، عبدالرحمن بن أبي بكر، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م، تناسق الدرر في تناسب السور، تحقيق: عبدالقادر عطا، ط١، بيروت: دار الكتب العلمية.

[١١] شلتوت، محمود، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٤م، تفسير القرآن الكريم: الأجزاء العشرة الأولى، ط١٢، القاهرة: دار الشروق.

[١٢] طعيمة، صابر، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، بنو إسرائيل بين نبأ القرآن الكريم وخبر العهد القديم، ط١، بيروت: عالم الكتب.

[١٣] ابن عاشور، مُحَمَّد الطاهر التونسي، ١٩٩٧م، التحرير والتنوير، د.ط، تونس: دار سحنون للنشر والتوزيع.

[١٤] عباس، فضل حسن، ١٩٨٥م، القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته، ط ١، عمان: دار الفرقان.

[١٥] الغرناطي، أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير، ١٤٢٨هـ، البرهان في تناسب سور القرآن، ط١، تحقيق: سعيد بن جمعة الفلاح، السعودية: دار ابن الجوزي.

[١٦] الفراهي، عبدالحميد، ٢٠٠٨م، تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ط١، الهند: الدائرة الحميدية.

[١٧] ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م، تفسير القرآن العظيم، ط٢، تحقيق: سامي بن مُحَمَّد سلامة، الرياض: دار طيبة.

[١٨] مصطفى مسلم ومجموعة باحثين، ١٤٣١هـ-٢٠١٠م، التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، ط١، الإمارات: جامعة الشارقة.

[١٩] مصطفى مسلم، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م، معالم قرآنية في الصراع مع اليهود، ط٢، دمشق:دار القلم.

[٢٠] المودودي، أبو الأعلى،١٣٩٨هـ- ١٩٧٨م، تفهيم القرآن، تعريب: أحمد يونس، ط١، الكويت: دار القلم.

[٢١] المهايمي، علي بن أحمد الشهير بالمخدوم، ١٢٩٥هـ، تبصير الرحمن وتيسير المنان بعض ما يشير إلى إعجاز القرآن، د.ط، مصر: مطبعة بولاق.